بطل الضياع

تأليف : بوريس بريفالوف
ترجمة : خيري حماد

« بوريس بريفالوف ، كاتب قصصي معاصر ، ولد على مقربة من بريانسك في عام ١٩٢٤ . زاول قبل نشوب الحرب عددا من المهن بعد ان انهى دراسته الثانوية ، فعمل ممثلا وطباخا ، وبائع كتب ، ودليل سياح ، وانتهى اخيرا الى العمل كمراسل حربى .

« التقى اخيرا بالكاتب السوفياتى الساخر يوجينى بيتروف، فشجعه على التحول الى الادب ، وكان اول من نشر له قصة في عام ١٩٤٢ .

« اقبلت الصحف والمجلات بعد هذا التاريخ على نشر قصصه ومقالاته ونقداته . اصدر في عام ١٩٥٦ بالتعاون مع بوريس بيجوروف قصته الطويلة الساخرة ... « لا تمر .. »

وهذه القصة التى نتولى تعريبها اليوم هى من احدث قصصه ..

اهناك من لم يفقد شيئا قط ؟ قد يؤدى التدقيق فى البحث الى العثور على انسان مفرق فى حرصه الى الحد الذى صانه من اضاعة اى شيء مهما كان تافها طيلة حياته .. ولكن لو استطعنا العثور على مثل هذا الانسان، فحرى بنا ان نجد له متحفا خاصا نعرضه فيه ، كشيء فريد فى نوعه . لكن صديقى الملازم فيكتور سكاميكين ، الطالب فى الكلية الحربية ، كان انسانا عاديا ، مثلى ومثلك . ولعل هذا هو الذى دفعنى بعد ان نزلت واياه من سيارة ! الباص » الى سؤاله .. ترى أين حقيبتك ؟

وتطلع فيكتور الى يديه، واخذ يقلب جيوبه وكأنه يبحث عن شيء ثم قال.. لا بد اننى نسيتها فى الباص .

وقلت على عجل .. ايها الأبله ! اذن هلم ، فاستقل «الترام» القادم . ان «الباص» يقوم بدورة كبيرة ، قبل ان يصل الى المحطة القادمة ، التى تتجه اليها حافلة الترام راسا . وهناك ستلحق بالباص ، وتعثر على حقيبتك. هيا ، ها هو الترام قادم .سأنتظرك هنا .

وقفز فيكتور الى الحافلة ، وراح يبحث عن حقيبته .

ولم تمض عشرون دقيقة ، حتى كان يهبط من الحافلة القادمة ، عائدا الى، وهو مشرق الوجه ، ويبادرنى بقوله.. « لقد لحقت بالباص فى محطة كورسك. كان يحمل رقم ٦٧٩ . وعندما صعدت الى السيارة ، وجدت حقيبتى بجانب السائق . وبعد ان تثبت من ملكيتى لها من حرفى «ف. اس» ، المنقوشين عليها، أعادها الى ، فانتقلت الى الترام وأبت اليك .

ـ ولكن أين الحقيبة ؟

وتطلع فيكتور الى يديه ، وقال مستسلما .. حسنا ، لا أدرى . لعلى نسيتها من جديد فى حافلة الترام .

ـ يالله .. بم كنت تفكر يا رجل ؟

وابتسم فيكتور وقد علته الحيرة.. ثم قال : « قد لا تصدقنى ، ولكننى وانا احمل الحقيبة فى يدى ، كنت افكر فى «مكتب الاشياء المفقودة» . انه المكتب الذى يعثر فيه الانسان على كل مايضيعه .. هلم نذهب اليه ..

ـ أو أوكلت اليك مهمة الاعلان عن هذا المكتب ؟

ـ لا تكن سخيفا . هيا .. ستفهم كل شىء هناك .

ولما وصلنا باب المكتب ... توقف صديقى فجأة ، فبادرته قائلا .. ولكن .. ماذا حدث ؟

وقال فيكتور وقد بان التردد فى نبرات صوته .. حسنا .. انظر.. سانتظرك هنا .. ولعلنى ادخل بعد دقيقة او دقيقتين .

ـ ولكن لم ؟... قل لى ما القضية؟

ـ انها مسئلة معقدة .. حسنا أنا لا اريد ان القى مدير المكتب .. ادخل انت وحدك .. وانظر اذا كان هناك رجل بدين يضع على راسه قبعة اسيوية «قلبقا» .. انه ثرثار كثير الكلام ... هلم ادخل .. وساشرح لك الموضوع فيما بعد ..

وفتحت الباب ووجدت نفسى ادلف الى صالة صغيرة ، تقود ابوابها الزجاجية الى مستودع الاشياء الضائعة ، حيث رأيت فتاة شقراء الشعر رائعة الجمال تجلس الى مكتب صغير ، وامامها عدد كبير من المظلات والمعاطف التى تحمل مختلف الالوان . وكانت الى جانبها سيدة تضع على ساعدها اشارة «مفتشى الترام» ، وهى تمد اليها يدها حاملة اشياء عدة . وقالت المفتشة.. « لقد عثرنا على كل هذه المظلات والمعاطف بعد توقف المطر يا نيفا ... اما يوم الخميس ، فقد عثرنا بعد تلك العاصفة المطرة على رقم قياسى .. ثمانى مظلات وخمسة معاطف » .

وقررت الا أدخل لتوى ، وان اتبع الطريقة الصحيحة فى الاستكشاف، دون ان ادع احدا يرانى .. فلربما كان البدين المجهول هناك ، ولكننى لا اراه .. حسنا لأصبر .. ورأيت رجلا يدنو من مكتب نيفا .. انه شاب نحيل يضع على عينيه نظارتين ... وفى يده كتاب ضخم وقال وهو يمد يده بالكتاب .. هذا هو .. وعليه اهداء المؤلف بخطه الى .

وقرأت نيفا عبارة الاهداء ، ثم نظرت الى غلاف الكتاب ، وانفجرت ضاحكة

.. وشاركتها المفتشة ضحكها .. ثم قالت .. يا له من اهداء غريب ... تعال وانظر ..

وبدا الشاب يشرح لهما فى عصبية ظاهرة ، وهو يمسك بنظارته فى يده.. جاء المؤلف الذى كتب هذا الاهداء الى كليتنا ، ليشهد ندوة أدبية.ألا تعرفينه .. لقد كتب عددا من قصص الحرب .. وكان من الطبيعى ان يشترى الطلبة جميع كتبه من المكاتب المجاورة ، أملا فى ان يوقع عليها ، مع اهداء منه .. انه لشىء عظيم ان يحصل المرء على توقيع المؤلف ..

وهزت نيفا ورفيقتها رأسيهما بالموافقة ، ومضى الشاب يقول .. ولقد تحدث الينا المؤلف عن كتبه ، ورد على اسئلتنا . وسرعان ما هجمنا عليه نطلب توقيعات على كتبنا . ورايت انه يوقع على الكتب دون ان يتفحصها ، ويعرف ما اذا كانت كتبه حقا. وجالت فى ذهنى فكرة شيطانية .. حقا انها نكتة ساخرة . وسرعان ما امسكت بكتاب ليوتولستوى هذا وقدمته اليه ، فوقع عليه بعد أن كتب عبارة الاهداء دون ان يتطلع الى الكتاب .. انظرى، ها هو قد كتب بخطه .. « فى ذكرى لقائنا » .

وهزت المفتشة رأسها وكأنها تؤنبه انها خديعة طفل ..

ورد الطالب قائلا .. « قولى ما تشائين .. على اى حال لقد نسيت الكتاب فى الباص ، ولولا هذا المكتب النافع ، لضاع على هذا الاهداء النادر، على اى حال .. لاضير ، مادامت النهاية طيبة . شكرا ..

وكانت نيفا تلقى فى غضون ذلك بنظرة أخرى على التوقيع النادر ، ثم قالت.. ولكن المسئلة ليست من البساطة على النحو الذى تظن .

وصرخ الطالب وهو يقول ... الا تصدقيننى .. الا تصدقين انه كتابى؟

ـ لا . انه كتابك . ولكن المؤلف كان يعرف أن ما يوقع عليه ليس بمؤلفه .

وقال الطالب مندهشا .. ولكن.. كيف ؟.. وما ادراك ؟

ـ لقد عرف لعبتك .. فى أى يوم كانت الندوة ؟

ـ فى الثلاثين من مارس .

ـ ولكن انظر الى التاريخ الذى ارخ فيه اهداءه .. انه الاول من ابريل . وقد وضع خطا تحت هذا التاريخ ليؤكده . انظر .. الا تراه .

وارتبك الطالب من شدة ما عراه من الخجل .. فاحمر لونه واصفر واخضر .. ثم قال .. حقا .. انك على صواب، لم ألحظ هذا .. حسنا .. شكرا .. وأسعدتما صباحا .. بل أسعدتما مساء .. ومضى مارا من جانبى وكأنه طائرة نفاثة .. مندفعا الى الشارع .

وتطلعت الى الفرفة من جديد مفتنما فرصة اغراق الفتاتين فى الضحك. اننى لا أرى رجلا ، سواء كان بدينا أم نحيلا .. وبات فى وسعى أن انقل الى فيكتور اننى اديت المهمة على احسن مايرام..

وقال الملازم وهو يلقانى ، وقد بان

الشك على محياه .. لماذا تأخرت كل هذه المدة الطويلة ؟.. أكنت تتحدث اليها ؟

كان صديقى فى منتهى الغرابة فى ذلك اليوم . ولم أعد أرى فيه ذلك الضابط الهادىء الوديع والمتزن الذى أعرفه .

وقلت له .. « الطريق مفتوح امامك .. ليس هناك رجل بدين » .

ودلفنا الى الغرفة . وفوجئت فى أن أرى الرجل البدين ذاالقبعة الاسيوية « القلبق » يقف فى نفس المكان الذى رأيت فيه مفتشة الترام . وأراد فيكتور ان يتراجع بسرعة ،ولكن نظرى نيفا والرجل البدين وقعا عليه . ورأيت مفارقة غريبة على وجهيهما ، فقد بدت الفتاة سعيدة برؤياه ، بينما بان الفزع على الرجل . ولن يكون فى وسعى ان أصف النظرة التى القاها على صديقى.

وقال فيكتور بشىء من التخاذل .. مساء الخير .

وردت نيفا وقد شفعت قولها بنظرة حانية عطوف .. اسعدت مساء ... ماذا فقدت اليوم ؟

ولم يرد الرجل البدين على تحية فيكتور المهذبة ، بل بادرنى قائلا ... أانت معه ؟ اذن تعال معى الى هنا من فضلك .

ومضى بى الى مكتب آخر . يحمل لافتة كتبت عليها عبارة «المدير» .

وقدم الى مقعدا ثم قال .. اتعرف الضابط جيدا ؟

ـ طبعا ، انه صديقى .. لقد كنا معا فى دورة تدريبية واحدة ..

ـ اذن ! تعرف ان صديقك هذا قد حرمنى من الاكل والنوم ؟

ـ لا . لا اعرف .

ـ لقد لقيت المئات بل الالوف فى عملى هنا . ولكن هذه هى المرة الاولى التى القى فيها انسانا كصديقك .

وصب قدحا من الماء ووضعه امامى. فاعتذرت بلطف ، وارتشفه وهو يقول ... بعد أن خلع قبعته .. اسمع ان صديقك يأتينا هنا كل يوم . اتفهم ما أقول ؟ انه يصل كل يوم .. ويملأ قسيمة من الورق ، مبينا انه فقد شيئا. ولقد حطم الرقم القياسى فى مدى اسبوعين فى الضياع . فلقد أضاع فى مختلف حافلات الترام فى موسكو خمس مظلات وحقيبتين ، وطردين ، وحافظة، وكلب صيد يسمى «طرزان» .

ماذا ؟ هل أضاع كل هذه الاشياء؟ لا بد أن هناك خطأ من أى نوع ... لقد وفد الى موسكو منذ أمد قريب ليدخل الكلية الحربية ... وكل ما حمله معه عند مجيئه ، لا يعدو حقيبتين ، هما فى أمان عندى ...

ـ ان قولك هذا ، يزيد الامر تعقيدا وغرابة ، لا سيما وانه ملأ قسائم بكل هذه الاشياء التى ذكرتها لك . ولكن هناك ما هو أهم من هذا . ان الناس يفقدون أشياء أثمن من تلك التى ذكرها صديقك وتعاد كلها الينا . لقد اضاع صراف عشرة الاف روبل مع قوائم الاجور والرواتب ، ولكنها جاءتنا كاملة

غير منقوصة ،فطلبنا الصراف واعدناها اليه . فليس الموضوع فى الكم وفى كثره مافقده صديقك ، وانما هو فى ان أيا من الاشياء التى فقدها لم تعد الينا ، حتى ولا الكلب . اجل لم نعثر على اية مظلة او حقيبة او طرد . وهذا مستحيل . اتفهم . انه مستحيل . انظر . اننى اعمل هنا منذ امد طويل. ولقد رايت كثيرا من الاشياء المفقودة ، وقد اعيدت الى مكتبنا، أو عاد معظمها، وفى مكنتك ان تستنتج من كل هذا اشياء عدة فى منتهى الاهمية. قارن بين ما كان يفقده الناس فى الماضى ، وما يفقدونه الآن ، وستقودك المقارنة الى نتائج علمية مهمة للغاية . ان ما يعاد الينا اليوم ، اغلى واثمن من كل ماكان يعاد فى الماضى . ولكن نسبة الضياع هبطت ، ولعل مرد ذلك الى ان الحياة باتت اليوم اسهل وافضل من الامس. وباتت مجالات الراحة متاحة لهم ، فهدات اعصابهم ، ولم يعودوا مشردى الفكر مبلبلى الخواطر . وترتفع نسبة الامانة فى كل يوم عن اليوم الذى سبقه. وفى وسعى ان اقول لك ، ان ٩٨٪ فى المائة من الاشياء التى نبلغ بضياعها تعود الى اصحابها ، بعد ان نبعث فى طلبهم . وقد تلقينا الوف الرسائل من الناس يشكروننا فيها على عودة مافقدوه .. قل لى هل فقدت شيئا فى حياتك؟ مع الاسف انك لم تفقد . ارجوك جرب مرة. وستعود الينا بعد يومين وتستعيد ما اضعته . أما صديقك هذا ، فأمر آخر. لقد اتلف علينا فى هذين الاسبوعين تلك النسبة العالية . ان شعارنا ... كل ما تفقده ، تجده هنا . ولكن صديقك كذب شعارنا . اذ لم نعثر على اى شىء مما فقده . وقد هبطت نسبة الامانة من ٩٨ الى ٧٠ . كم اتمنى لو اننا عثرنا له على شىء واحد فقط . ولكننا لم نعثر على اى شىء .. وهنا موضع الشك . قد لا يكون فقد كل هذه الاشياء ؟ ماذا تظن ؟ ترى ماالذى فقده وما الذى يرجو العثور عليه؟ هل يستطيع ان يخترع كل هذه الاشياء التى فقدها .. حتى الكلب طرزان ؟.

فقلت للمدير .. لا ادرى ما الذى فقده فى الايام الاخرى ، ولكننى اعرف ان الملازم أضاع حقيبته اليوم .. لقد اضاعها امامى .. انه نسيها فى حافلة الترام .

ومسح المدير على جبينه بيده وقال متأففا ... اكاد أجن ! ان هذا يعنى ان كل ما ادعاه فى الماضى من ضياع صحيح ؟ الحقائب ، الطرود ، المحفظة، المظلات ، والكلب !.تعرف اننى بدأت أفقد ايمانى فى الطبيعة الانسانية . لقد ارتفعت نسبة الامانة سنة بعد سنة ، وشهرا بعد شهر .. وفجأة.. يقع هذا ! !لا استطيع ان اصدق !لابد من وجود شىء فى الموضوع ... ارجو ان تستدعى صديقك ، وان تظل معه هنا .

وخرجت الى المكتب الخارجى ، فرايت فيكتور يجلس الى جانب نيفا. كانا يبدوان كالمذنبين عندما ابصرانى ادخل عليهما. وهب فيكتور من مقعده. وقلت له : ان المدير يود ان يراك .

وقالت نيفا ... أدخل اليه ... لا تخش شيئا .. انه لطيف جدا .. والتفتت الى وهى تقول .. الآن فقط:

حدثنى فيكتور بكل شيء .. كان يريد ان يحدثنى ، فى كل مرة ، ولكن المدير، كان يدخل علينا ، فيقطع عليه حديثه.

وقلت لها .. ولكنه لم يوضح لى شيئا .. ولا استطيع ان افهم ماذا حدث ..

فضحكت نيفا وهى تقول .. المسألة فى منتهى البساطة ..

وقطع عليها كلامها ، رجل وقف الى النافذة ، وقد تدلت لحيته السوداءعلى ذقنه ، رفع اليها يده يحييها ثم اختفى

وسرعان ما بدا الانشغال على نيفا .. اخذت تنظر فيما امامهامن طرود، وتقرأ ما كتب عليها ، وتنحى بعض الطرود التى تعثر عليها جانبا .. ثم قالت .. ارايت هذا الرجل العجوز . انه انسان ذكى .. بل انه رمز نجاح هذا المكتب . انه ينسى كل شيء . ستة او سبعة طرود فى كل يوم. انه ينساها عامدا متعمدا ، ويضع على كل طرد منها، علامة خاصة .. انها احرف : « ال. او. بى » .. أى .. «اضعتها قصدا» انه يعمل فى مزرعة تعاونية . وهو يقيم مع ولده الذى يعيش على مقربة منا هنا . والعجوز مولع بالتجوال ... فهو يمضى الى هنا والى هناك ، مبتاعا كل ما يراه ضروريا لاسرته ومزرعته. وله ثمانية عشر حفيدا .. انهم يؤلفون فرقة كاملة .. »

فقلت لنيفا .. ولكن ما شأن مكتب الاشياء المفقودة بكل هذا ؟

ـ انه يجعل منا مكتبا لنقل كل ما يشتريه . فهو لا يريد ان يحمل بنفسه الى منزله كل ما يبتاعه ... افهمت ؟ هناك حوانيت ليست لديها اجهزة خاصة بنقل المبيعات الى البيوت، وقد ابتكر الرجل طريقته . فهو يبتاع ما يريد ثم يذهب الى محطة الترام او الباص ويسأل القائمين عليها .. اهناك من فقد شيئا ؟ فيرد عليه هؤلاء بالنفى. ويسلم ما يحمله الى المحطة بعد ان يدون اوصافها فى دفتره ، واين سلمها ، ولمن سلمها ، وتصل مشترواته الينا بعد وقت قصير . ولما كان يعيش على مقربة منا ، فانه يأتى بزمرة من احفاده ، فيحملهم هذه المشتروات ، ويعود الى منزله ،سعيدا مطمئنا . وفى كل مرة. يأتى الى معتذرا ويقول .. « لن انسى شيئا آخر ، مرة اخرى . اغفر لى ارجوك » .. هل رايته قبل قليل وهو يشير الى .. انه فى طريقه الى منزله .. وسيأتى مع مجموعة من احفاده بعد قليل .

واتمت نيفا فرز طرود الرجل .. وعادت الى مكانها . وارهفت سمعها، تود لو سمعت ما يدور من حديث فى غرفة المدير . لكن الحديث كان هادئا، وكان من المتعذر عليها ان تسمع شيئا منه .

ورحت اسألها.. « ولكن كيف فسر لك صديقى الضابط، موضوع مااضاعه طيلة هذه الايام ؟

وابتسمت نيفا وهى تقول ..«انه لم يضيع شيئا على الاطلاق . رآنى صدفة وتبعنى الى هنا .. وجاء المدير .. واعمل فيكتور فكره بسرعة ، لعله يعثر على سبب يبرر وجوده ، فادعى انه اضاع مظلة . وتكرر المنظر فى اليوم

التالى . جاء يريد أن يرانى ، فوجد المدير معى ، وتظاهر بانه فقد شيئا آخر . ولم اكن اعرف شيئا عن سبب مجيئه . حقا لقد شعرت بأن هناك شيئا من الغرابة ، ولكننى لم استطع أن أخمنه لو اننى عرفت لطلبت اليه الا يخترع مفقودات جديدة ، وان يكتفى بالسؤال عن الاشياء السابقة.. ولو حدث هذا ، لسارت الامور سيرا طبيعيا. أما اليوم. فنحن مدينان لك. لقد شغلت المدير برهة من الوقت ، استغلها فيكتور فى ان يحدثنى بما يريد ..

واحمر وجه نيفا خجلا .. وفهمت بالطبع ما حدثها صديقى به .

وسرعان مادلف الينا فيكتور والمدير فى المكتب ، وقد بانت على محياهما علامات الارتياح .

وقال الرجل البدين .. « لقدعادت نسبة الامانة الى وضعها الصحيح .. أضع ما شئت ، وستعثر عليه هنا ! »

ومضى فيكتور الى نيفا ، وهمس فى اذنها شيئا لم اسمعه. وفى تلك اللحظة، ظهر الرجل العجوز ذو اللحيةالسوداء فى باب المكتب ، ومعه نفر من الفلمان والفتيات من مختلف الاعمار . انهالجد الذكى مع احفاده .وخرجت معفيكتور

وبادرنى صديقى قائلا ، ونحن نسير فى الشارع .. ما رأيك فى نيفا ؟ هل اعجبتك ؟ انها فتاة رائعة ... انها الشىء الذى كنت احلم به دائما .. أما وقد استقامت الأمور الآن ، فقد بات فى وسعى ان امضى الى هناك فى اى وقت ، دون أن أحس بأى ضيق أو خجل » .

ولم ار فيكتور طيلة الاسابيع الثلاثة التالية ، فقد كان مشغولا عنى فى كليته الحربية . ولكن حدث فى أمسية ليلة دافئة من شهر مايو ، ان التقيت صدفة فى الشارع بمدير المكتب .. ورأيت فى ملامحه علائم الاسى والحزن .

وقلت لصديقى .. وماذا حدث بالحقيبة التى اضعتها اليوم؟ هل ملأت قسيمة بأوصافها ؟.

ـ ماذا ؟ ماذا تقول ؟.. آه حقيبة

اليوم .. طبعا .. حسنا ، لا بأس ، سارى نيفا هذا المساء ، وسأحدثها عنها » .

وقلت له .. ماذا دهاك .. هل عادت الارقام الى الهبوط ؟ أو هل طرأ شيء على نسبة الامانة ؟

ـ لا . كل شيء على ما يرام فى موضوع النزاهة . وكيف حال صديقك الملازم ، بطل الضياع ؟ انه بارد ... ولكن ما يضايقنى اليوم أمر آخر .. مازال هناك اناس لا يؤمنون بأمانة الآخرين .. انهم لا يحاولون استعادة الاشياء التى يضيعونها .. انهم مازالوا يتفكيرهم ، يعيشون فى الماضى السحيق .. اسمع منى هذه القصة. لقد انقضى اكثر من شهر كامل ، وعندنا حقيبة تحمل حرفين « ف . ا س » . لقدعثر عليها فى حافلة ترام . والغريب ان صاحبها لا يأتى ليسأل عنها . لا ريب فى انه انسان عجوز ، من طراز «توماس الكثير الشكوك » .. ما الذى يضحكك؟

ـ اظن اننى اعرف صاحب هذه الحقيبة ؟.. انها بنية اللون اليس كذلك ، وعليها حرفان من الفضة ؟

ـ اجل ... انها كما تقول ... ولكن ..

ـ لا بأس ، سابعث اليك بصاحبها فى الغد ..

ورمانى الرجل بنظرة لا تخلو من العطف ، وهو يقول .. « حقا ان لك اصدقاء فى منتهى الغرابة . احدهم يأتينا يوميا طيلة اسبوعين ، وفى كل يوم اكذوبة جديدة .. وآخر ، اسوأ من ذلك .. كثير النسيان والشكوك ... ولكن لا تستأمن قولى .. فانا اكن لك كل تقدير .. حقا اننى اميل اليك .. اضع ما شئت ، وتعال الى فستجدكل ما اضعته . سيسعدنى ان اراك دائما.

وتحدثت هاتفا الى فيكتور ، وذكرته بحقيبته الضائعة .

والتقيت بنيفا فى اليوم التالى . كانت تعود الى بيتها من عملها ، وقد حملت حقيبة عليها حرفا « ف .اس.» لقد وقعت على وصل الاستلام فى سجل الاشياء الضائعة والمسلمة الى اصحابها.

وكان لها كل الحق فى توقيع هذا الوصل .. اذ انها اعادت الحقيبة... الى زوجها .. فيكتور .